

حكايات جدتي الابن الطيب

بقلم
جمال مشوقي



الابن الطيب

ذات ليلة ممطرة بينما كان شريف يعبر الطريق مسرعاً ،
 إذ رأى امرأة كبيرة السن تمشى فى الطريق الموحد الزلق
 والظلام شديد ، تدعو الله أن ينجيها من مصاعب هذه الليلة .
 ورأى وجهها فى ضوء البرق الخاطف ، فتعجب كثيراً ،
 فما الذى أخرج هذه المرأة العجوز من بيتها إلى الطريق
 فى مثل تلك الليلة ؟ والطريق خال مقفر ، ليس به مكان
 حصين يمكن أن يلجأ إليه . فما عليه إلا أن يواصل السير
 حتى يصل إلى مكان أمين يحتوى به ، أو يصل إلى المكان
 الذى يقصده ، وهو فى أثناء ذلك يؤنب نفسه لأنه سلك
 طريقاً غير الطريق الذى اعتاد أن يسلكه .

وكان شريف قبل ذلك يسير بسرعة ، ويدوس بقدميه
 فى الوحل وفى برك الماء الصغيرة التى تتجمع من ماء المطر .
 ولكنه الآن لا يستطيع أن يواصل السير ، ويترك العجوز
 وحدها فى هذا المكان الموحش المخيف .

فاقترب منها وصاح : كيف حالك يا أمى فى هذه الليلة

المطيرة ؟

قالت بصوتها الضعيف المرتجف : إنما أنا يا بنى امرأة
عجوز فقيرة ومريضة .

فلما اقترب منها أكثر ، وجدها ترتجف بشدة ، وتقع
على الأرض ثم تقوم ، وتحاول السير فلا تستطيع ، وقد
تلوثت ملابسها وتلوث وجهها ويدها بالوحل .
فقال لها : دعيني أساعدك يا أمي .

ووضع يديه تحت إبطيها ورفعها . فوجد أن ثقلها لا
يعدو ثقل طفل صغير ، فحملها على كتفه ومضى بها .
وبعد قليل رأى شريف شعاعاً خافتاً من الضوء ينير المكان
وقد كف المطر عن النزول ، وانقشعت الغيوم عن وجه
القمر ، فأمكنه أن يرى كوخاً صغيراً على جانب الطريق ،
فأتجه إليه والعجوز على كتفه وراح يدق الباب بيده غير
الممسكة بالعجوز فلم يلبث الباب أن انفتح ، وظهر شيخ
كبير وراح يدقق النظر في الشاب وفي المرأة العجوز على
كتفه فرحب بهما وأفسح لهما الطريق ، وقادهما إلى فراش
من القش ، ثم راح هو وشريف يساعدان العجوز على أن
تخلع ملابسها المبتلة ، وتلبس بدلاً منها ملابس جافة
أحضرها لها الشيخ من عنده . وأشعل الشيخ ناراً لتدفئة



الجو داخل الكوخ ، وخلع شريف ملابسه المبتلة والتف بعبادة من الصوف أحضرها له الشيخ كذلك . ثم نشر الشيخ ملابسهما المبتلة خارج الكوخ ليجففها الهواء .
 والتفت الشيخ إلى شريف وسأله : ما الذى أخرجكما من بيتكما فى هذه الليلة الممطرة ؟ قال شريف : إنما خرجت لأبحث عن دواء لأبى قيل إننى سأجده عند طبيب فى المدينة المجاورة .

سأله الشيخ : وهل سبق لك أن ذهبت إلى المدينة المجاورة ؟

قال شريف : ذهبت إليها مع والدى أيام السوق ، ولكن من خلال طريق غير هذا الطريق .
 قال الشيخ فى دهشة : ولماذا غيرت الطريق الذى أعتدت عليه هذه المرة يا بنى ؟

قال شريف : غيرته لأنقذ هذه العجوز المسكينة .
 ونظر الشيخ إلى العجوز وسألها : وأنت ما الذى أخرجك من بيتك فى هذه الليلة الممطرة ؟
 قالت العجوز : خرجت لأحضر بعض الجوز لابنى من الغابة فى جوار تلك المدينة .

هز الشيخ رأسه ، ثم ابتعد عنهما وتركهما ينعمان
 بقسط من النوم والراحة ، إلى أن تجف ملابسهما . وعندما
 استيقظا من نومهما في صباح اليوم التالي ، لم يجدا أثراً
 للشيخ الكبير ولا للكوخ ، ووجدا ملابسهما وقد جفت .
 كما وجدا إناء من الفخار به كيسان ، في أحد الكيسين
 مسحوق ، وفي الكيس الآخر بعض الجوز ، وتساءلا في
 نفس اللحظة : ترى من يكون ذلك الشيخ الوقور ؟

وسرعان ما وجدا في طيات ملابسهما ورقة كتب فيها :
 « يا أيها الشاب الطيب ، ويأيتها العجوز الطيبة ، إنكما
 تستحقان العون والمساعدة . ولهذا فلتأخذ العجوز كيس
 الجوز حتى لا تتعب أكثر مما تعبتي في إحضار الجوز لابنها
 من الغابة ، وليأخذ الشاب هذا المسحوق لاييه المريض .
 ولكن لا تسألا من أنا ؟

ولكن الأعجب من ذلك أن العجوز عندما وصلت إلى
 بيتها وجدت ابنها معلقاً وقد جلده شيخ غريب مائة جلدة
 عقاباً له على أن مكث في البيت مرتاحاً ، وأرسل أمه
 العجوز في هذا الجو الممطر ، لتحضر له بعض الجوز .

فما أن دخلت الأم العجوز البيت ، حتى راح ابنها
 يناديها ويقول لها : اغفري لي ذنبي يا أمي ، فقد كان
 تصرفي قبيحاً .. سوف أصحن لك الجوز وأمزجه بالسكر
 والدقيق ، وأطعمك إياه بيدي ، وسوف أقوم على رعايتك
 وخدمتك قدر ما أستطيع ، ولن أكرر ما جرى مني فحق
 الأمهات على أبنائهن أن ينعمن بالراحة والتقدير .
 فسامحيني يا أمي ، سامحيني .

أما شريف فقد وجد أباه متكئاً على سريره ، فقال له
 حين رآه : بارك الله فيك يا بني ، فأنت ابن بار ، خرجت
 في جو ممطر عاصف لتحضر لي الدواء الذي وصفه الطبيب .
 وقد مر بي شيخ طيب ، وسقاني جرعة من الدواء تحسنت
 على أثرها صحتي . وقد ترك عندي أمانة لك كيس النقود
 هذا لتستعين به .

أرجوك أنقذنى

فى قرية فقيرة تقع عند أطراف الغابة ، خرج الصبى
مسرور من بيته الصغير إلى الغابة ، يجمع بعض الثمار
للطعام . لاحظ مسرور أن الأشجار كلها بلا ثمار ، فظل
يمشى ولا يدرى إلى أين تقوده قدماه ، يبحث عن ثمار
يأكلها حتى هبط الظلام . ولم يفق إلى نفسه حتى اصطدم
بشجرة ضخمة ، وتنبه إلى ما حوله . فراح يحدث نفسه :
إنه وسط مكان لم يدخله من قبل كما لم يعثر بعد على أية
ثمار .. فماذا جرى ؟

— لقد تعبت .. لكن على أن أخرج من هذه الغابة ،
ولكن كيف ؟ والظلام شديد ، فلا بد أن أنتظر طلوع ضوء
النهار حتى أجد طريقى . وربما أجد شيئاً فى هذا المكان
أكله أسد به رمقى .

فجأة سمع مسرور صوت استغاثة يأتى من تحت قدميه .
وأطل فإذا بحفرة عميقة ينطلق الصوت من داخلها . فحمد
الله كثيراً حيث لم يقع فيها . كان صاحب الصوت يقول :

أنقذني بالله عليك .. النجدة يا من تسمعي .. النجدة
النجدة !

لم ير مسرور شيئاً لأن الحفرة كانت شديدة الظلام ،
فقال في نفسه : ما هذا ؟

إنه صوت إنسان : لابد أنه وقع في حفرة حفرها الصيادون
ومرة أخرى عاد الصوت يقول : أخرجوني من هذه
الحفرة ، وسأعطيكم مائة قطعة ذهبية .

لم يصدق مسرور ما يسمعه ، فأسرع بإحضار غصن شجرة
طويل ، ومد يده فأدلاه إلى داخل الحفرة وهو يقول : تعلق بهذا
يارجل . سأسحبك من الحفرة بشرط أن تفي بوعدك .

سحب مسرور الغصن بقوة ، بعد أن شعر بثقل من
يتعلق به ، وراح يتراجع إلى الخلف في جهد كبير ، فلابد
أن من يتعلق بالغصن كان ثقيلاً . وفجأة انطلقت من فمه
صرخة هائلة ، عندما رأى ذئباً كبيراً يقفز من داخل الحفرة
وينطلق إلى أعماق الغابة ، فترك مسرور على الفور فرع
الشجرة يسقط من يده ، غير مصدق لما رآه .

تأمل مسرور ما حدث واليأس يملأ قلبه وقال : ما هذا ياربي ؟

حتى الذى وعدنى بالمال كان ذئبا ؟

ثم استدار ليعتد من هذا المكان . ولكنه سمع مرة أخرى صوت إنسان محبوس فى الحفرة : أرجوك يا سيدى لا تتركنى هنا . أنقذنى وسوف أعطيك مائتى قطعة ذهبية .

دهش مسرور وقال فى نفسه : مائتى قطعة ذهبية تستحق

المحاولة . ولكن من الذى خرج من الحفرة ومن الذى فيها ؟
ومرة أخرى أسرع مسرور وأحضر فرع الشجرة ومدّه إلى داخل الحفرة . فلما شعر بثقل الفرع راح يسحبه وهو يشعر أن هناك من تعلق به . وكانت المفاجأة هذه المرة أشد من المفاجأة الأولى ، فقد خرج من الحفرة قرد كبير ، وبمجرد خروجه قفز إلى أعلى الأشجار واختفى .

ومضى مسرور فى طريقه يضرب الأرض بقدميه غاضبا ، ليعتد عن هذا المكان العجيب .

إلا أنه توقف من جديد عندما وصلت إلى مسامعه صرخات : أيها الإنسان الشجاع أنقذنى .. أنقذنى وسوف أمنحك ثروتى كلها .



التفت مسرور وهو يقول : صوت من هذا ؟ من أنت ؟
 قال الصوت : أنا أغنى أغنياء هذه البلاد ، وعندى
 ثروة كبيرة سأهبها لك إن أنقذتني .

وأسرع يبحث عن فرع الشجرة ، ثم مد به يده إلى
 داخل الحفرة . فلما تأكد أن هناك من تعلق به راح يسحبه
 بكل قوته ، وهو يتراجع للخلف فى جهد كبير . وفى هذه
 المرة ظهر له رجل يتعلق بفرع الشجرة .

وما إن خرج من الحفرة حتى احتضن مسروراً وراح
 يشكره . سر مسرور هذه المرة لأنه وجد أمامه إنساناً حقاً ،
 وعليه أن يفى بوعده . وقف مسرور يحلم بأنه أصبح الآن يملك
 قصرًا وحديقة وحقولاً ، ولكنه عقد العزم فى نفسه على
 أن يقتسم الثروة مع الرجل صاحبها ، ويكفيه هو نصف
 الثروة فقط .

سأل مسرور : متى تنفذ وعدك ، وأمتلك ثروتك ياسيدى ؟
 أجاب الرجل مندهشاً : ماذا ؟ آه .. غداً .. غداً بالطبع .

سأذهب الآن وعليك أن تحضر لمقابلتي غداً في قصرى
ذى اللون الأخضر بالمدينة .

ومشى الرجل وهو يفكر .. لقد قطع هذا الوعد على
نفسه بتأثير الخوف والرعب فى الحفرة .. حفرة الموت ،
ولكن ما الذى يدعوهُ الآن لأن يتنازل عن ثروته وقد خرج
من الحفرة سالماً ،

نام مسرور تلك الليلة غارقاً فى أحلام عريضة ..
وفى الصباح انطلق إلى القصر الأخضر ، وهناك استقبله
الرجل وقال له : مرحباً بك يا مسرور ! فى الحقيقة عندما
كنت فى الحفرة ، وكان الموت يتهددنى وعدتك بثروتى
كلها . ولكنى الآن وقد عدت سالماً سأعطيك أجراً
عشرين قطعة ذهبية فقط .

رفض مسرور أن يمد يده وقال : لا يا سيدى ، لقد
وعدتنى وعليك أن تفى بوعدك ، وأنا لا أطمع فى
ثروتك كلها ، سوف أترك لك نصفها .

قال الرجل الثرى فى سخرية : ما هذا الكرم يا مسرور ؟

ثم نادى الرجل خدمه وقال : ألقوا بهذا الرجل خارج القصر .
 هتف مسرور وهو يُلقى خارج القصر ، وقال : سأجأ
 إلى القاضي لأخذ حقي منك .

وأمام القاضي مثل الرجل الثرى ومسرور ، وقال الثرى : أنا
 لا أنكر أن مسروراً أنقذ حياتى ، ولكن أيعنى هذا أن أعطيه
 ثروتى كلها ، أنا لم أعد به بشيء مثل هذا .

وعليه سوف أعطيه عشرين قطعة ذهبية مكافأة له راح
 القاضي يفكر ويزن الأمور ، فلم يكن هناك شاهد مع مسرور
 يشهد على ما وعد به الرجل الثرى ، فقال : لا بأس أيها
 الرجل ، ولكن ضاعف المبلغ واجعله أربعين قطعة ذهبية .
 لم يكن أمام مسرور إلا القبول ، فأخذ المبلغ وفتح كفيه
 ونظر إلى السماء وقال : اشهد يارب على ما جرى ، وخذ
 لى حقى من هذا الرجل ، والحمد لله على كل حال ..

أخذ مسرور الأربعين قطعة ذهبية وبدأ بها تجارة صغيرة ،
 فكانت فاتحة خير له فضاعفها الله مرات ومرات

و ذات يوم جاءت سحابة كبيرة وألقت بظلالها على
مزارع الرجل الثرى ، وسمعت صيحة خوف من المزارعين
فى حقوله تقول : الجراد .. الجراد ... !

وبدأت المقاومة تشتد ضد غارة الجراد .

وما انتهت غارة الجراد إلا وقد جلبت البوار لحقول
الرجل الثرى وخسر معظم أمواله . فتذكر دعوة مسرور
عليه ، وكيف صار حاله ؟ فندم أشد الندم لأنه لم يف بما
وعد مسروراً به ، وأنكر ما قاله .